الفصل الثامن

الهجرة

لم يكن النبي محمد ﷺ قدرياً ولا متهوِّراً، كانت ثقته بربه مطلقة، لكن هذا لم يكن يجعله أبداً يستلسم وينساق مع الأحداث، وقد ذكره الوحي بألا ينسى أن يقول: «إن شاء الله»، عند عزمه على القيام بعمل ما وأن ذكر الله يجب أن يقترن بالتواضع لله (لاسيما فيما يتصل بقواه هو كإنسان). ومع ذلك، فإن هذا لم يكن يعني ضمنياً بأن ينسى تحمل المسؤولية وبعد النظر في الخيارات التي يمارسها في عالم البشر، وهكذا فقد كان محمد ﷺ يرسم خطة للهجرة إلى المدينة منذ سنتين، ولم يترك شيئاً للمصادفات.

وبعد أن استخدم قواه البشرية وذكاءه سلّم أمره إلى الله وتوكل عليه، ليفهمنا بذلك معنى التوكل على الله، حيث قام بكل شعور بالمسؤولية بممارسة كافة الصفات (الفكرية والروحية والنفسية والعاطفية... إلخ)، التي أسبغها الله على كل منا ونتذكر تواضعاً لله أن الله وحده هو الذي يدبر الأمور ويتحكم في الأشياء، فيما يتعذر على الإنسان فعله، وهذا الدرس هو في الواقع عكس إغراء القدرية: الله يتدخل فقط بعد أن يكون الإنسان قد سعى قدر المستطاع واستنفذ كل إمكانات العمل، وهذا هو المعنى العميق للآية القرآنية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

مع أبي بكر رضي الله عنه

قـرر محمـد ﷺ وأبو بكـر رضي الله عنه مغادرة مكـة ليلاً والتوجـه نحو اليمن لتفـادي جذب انتباه قريش، وقدم أبو بكر رضي الله عنه إلى محمد ﷺ ناقة اسمها القصواء، وأصر النبي ﷺ على أن يدفع له ثمنها؛ لأنه كان يريد أن تكون الهجرة له وحده، وكان يرغب بألا يكون عليه ديون عند هجرته إلى يثرب. كمـا أنه رفض لاحقاً قطعة من الأرض أراد يتيمان منحها له عند وصوله إلى يـثرب التـي أصبحت تعرف منذ ذلـك الوقت باسـم المدينة، (مدينة الرسول) (أو المدينة المنورة).

بعد أن توجها جنوباً اختبأ بضعة أيام في غار ثور وكان عبد الله بن أبي بكـر ـ رضي الله عنهما ـ يأتيهما بالأنبـاء بشأن نوايا قريش، وكانت بنتاه أسماء وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ تعدان الطعام وتحملانه سراً إلى الغار ليلاً، وهكذا فقد استخدم أبو بكر رضي الله عنه جميع أولاده، البنتين والغلام لتغطية خروجـه مع محمد ﷺ، رغم الخطر الكبير الذي كان الوضع ينطوي عليه لابنتيـه بشكل خاص. وكان دائماً يظهـر مثل هذا الموقف العادل في تعامله مع أبنائه وبناته، على ضوء تعاليم النبي ﷺ.

رغـم كل هذه الترتيبات، فقد توجهت مجموعـة من القرشيين، الذين كانـوا يشكـون في وجـود خديعة، نحو الجنـوب بحثاً عن النبـي ﷺ. وقد وصولوا أمام الغار استعداداً لدخوله، وكان بوسع أبي بكر رضي الله عنه رؤيتهم من المكان الذي كان واقفاً فيه، وقال للنبي ﷺ وهو خائف بأنه لو نظر الرجال إلى الأسفل لرأونا، فطمأنه محمد ﷺ وهمس في أذنه: «لا تخف: فإن الله معنـا»[2]، وأضاف يقول: «ما رأيـك باثنين الله ثالثهما؟»[3] هذه الكلمات

طمأنت أبا بكر ﷺ. فأمام الغار لاحظت المجموعة أن العنكبوت قد نسجت خيطها على مدخل الغار وأن حمامة كانت ترقد فوق بيضها هناك: كان من البدهي أنه لم يكن بوسعهما الاختباء في الغار، وقرر المطاردون البحث عنهما في مكان آخر.

مرة أخرى، ورغم إستراتيجيتهما التي تم التخطيط لها بعناية، فقد مر النبي ﷺ وصاحبه بتجربة التعرض للخطر. فحياتهما كانت تعتمد على التوكل على الله الذي ذكَّر النبي ﷺ أبا بكر ﷺ به في تلك اللحظة الحرجة، تجلى بكامل قوته ومعناه. فالله وحده هو الذي يستطيع إنقاذ حياة رسوله. وعندما هاجر محمد ﷺ فقد حرص على ألا يكون مديناً لأحد (فقد رفض الهدايا وسدد ديونه وأعاد الأمانات المودعة لديه)، لكنه كان يعرف أيضاً أنه مدين بكل شيء للواحد الأحد، وأنه لا نهاية لما هو مدين به له وما عليه من التزام إزاءه. إن الهجرة هي بالدرجة الأولى الدرس الأساسي في قلب التجربة التي خاضها النبي ﷺ؛ توكل على الله ينجم عنه «دون غطرسة» استغناء تام عن الناس فضلاً عن الإدراك المتواضع للاعتماد المطلق على الله.

كان أبو بكر ﷺ قد استأجر بدوياً غير مسلم، عبد الله بن أريقط، ليدلهما على الطريق إلى يثرب عبر طريق خفي وغير مطروق، وفي الوقت الذي تم تحديده للمغادرة، جاء ابن أريقط ليقابلهما عند الغار ومعه النوق. وانطلقوا باتجاه الغرب، ثم جنوباً، قبل التوجه في خاتمة المطاف شمالاً إلى يثرب، كانت رحلة محفوفة بالأخطار حيث إنه إذا استطاع القرشيون اللحاق بالمسافرين الثلاثة فإنهم كانوا سيقتلونهم بالتأكيد بغية وضع حد

لأنشطة محمد ﷺ التخريبية على حد زعمهم، كان النبي ﷺ وصاحبه في السفر قد توكلا على الله لكنهما لم يترددا في استئجار أحد البدو الذين رغم أنه على شرك أعدائهما، إلا أنه كان معروفاً لديهما بأمانته (وكان يفخر بوفائه بوعده) وبقدراته كدليل (كان يعرف أكثر من أي شخص آخر الممرات الوعرة البعيدة عن الطرق المعتادة التي سلكها معهما).

ومرة ثانية، كان هذا الموقف يلازم النبي ﷺ في حياته: فالنساء والرجال الذين أحاط نفسه بهم قد لا يكونون على دينه، لكنهم كانوا معروفين لديه بصفاتهم الأخلاقية وقدراتهم البشرية. فلم يكن محمد، شأنه في ذلك شأن الذين أتوا بعده، يتردد في الاعتماد عليهم.

المساجد

استغرقت الرحلة إلى قبا عشرين يوماً، ووصل الرسول ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه أخيراً إلى قرية قبا الصغيرة التي كانت تقع خارج يثرب، كان الناس ينتظرونهما ورحبوا بهما بحرارة بالغة، وقد مكثا ثلاثة أيام في القرية وباشرا في بناء مسجد فيها، هو الأول في فترة الهجرة[4]. وقد سلك النبي ﷺ هذه الطريقة في كل مرحلة من مراحل الرحلة الثلاث إلى يثرب. وعندما غادر النبي ﷺ قبا، توجه إلى يثرب وتوقف عند الظهر، في وقت الصلاة، في وادي رنونا، حيث أدى أول صلاة جمعة مع أصحابه، وبدأ هناك أيضاً بناء مسجد، ثم توجه إلى مركز المدينة، وقد استوقفه كثيرون من الناس ودعوه إلى المكوث عندهم، فطلب أن يخلوا سبيل ناقته القصواء لأنها مأمورة بتحديد المكان بالضبط الذي سيستقر فيه. فتحركت الناقة إلى الأمام وإلى الخلف عبر الحشد الكبير من الناس.

ثـم توقفت أخيراً قرب قطعة أرض يملكهـا يتيمان، وكما ذكرنا آنفاً، فقد دفـع النبي ﷺ الثمن المستحق لهما. وقد بوشر علـى الفور ببناء مسكنه وبإنشـاء مسجد، في بناء النبي لهذه المساجـد الثلاثة فإنه كان يشير إلى أهمية ومركزيـة المسجد في العلاقة مع الله والمكان والجماعات البشرية. إن بنـاء مسجد هـو تكريس لمكان مقدس محدد ضمـن القدسية الأولى والأساسية للكون في مجموعه، كما قال النبي ﷺ «جعلت لي الأرض كلها مسجداً»[5]. وبعد أن يتم بناء المسجد المـكان المحوري للجماعة الروحية الإسلاميـة التـي تم إنشاؤه فيـه، لكنه يعبر أيضاً عـن حقيقة الاستقرار، وقبـول المكان المضيف، الـذي يتم تحويله لاحقاً إلى مـكان للإنسان وإلى بيـت لـه. بل إن وجود المسجد يبين أنه قد تم اعتمـاد مكان ما ليكون بيتاً، وأن الضمـير المؤمن «في مقره الأمـين»، لأن مكان العبادة، المُذكِّر بالمعنى، قـد تم إنشـاؤه. إن عمل النبي ﷺ المتكرر هو بحـد ذاته درس: فبصرف النظر عن طبيعة النفي أو الرحلة، وبصرف النظر عن الحركة والمغادرة، يجب علـى المرء ألا ينسى أبـداً المعنى والاتجاه، فالمساجـد تنطق بالمعنى وبالاتجاه وبالاستقرار. وقد أصبحت يثرب المدينة.

المنفى: المعنى والدروس

لقـد اضطـر النبـي ﷺ وأصحابـه إلى مغـادرة مكـة بسبـب أعمال الاضطهـاد والشدة والضـراء الصادرة عـن إخوانهـم وأخواتهم، ضمن عشائـر كل منهم. كان الوضع قد أصبح لا يطاق: فقد ماتت نساء ورجال، وعُـذِّب آخرون وأخـيراً كان زعمـاء قريش قد قـرروا مهاجمة النبي ﷺ والتخلص منه، كانت الهجرة قبل كل شيئ الواقع الموضوعي للمؤمنين من

نساء ورجال لم يكونوا يستطيعون ممارسة دينهم فقرروا بدأ حياة جديدة من أجل معتقداتهم، وبما أن أرض الله واسعة، كما قرر القرآن، فقد قرروا ترك موطنهم وهجر عالمهم وعاداتهم ومعاناة النفي، وكل ذلك في سبيل دينهم[6]. وقد أشاد الوحي لاحقاً بشجاعة وتصميم أولئك المؤمنين الذين أعربوا عن ثقتهم بالله والتوكل عليه، من خلال القيام بمثل تلك الخطوات الصعبة والمكلفة على الصعيد الإنساني:

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[7].

المنفى إذاً هو امتحان آخر للتوكل على الله، فقد تعرض جميع الأنبياء إلى هذا الامتحان القاسي للقلب، كما هو الحال لدى جميع المؤمنين بعدهم. فإلى أي مدى يستطيعون المضي، وإلى أي مدى هم مستعدون للعطاء، من أنفسهم وحياتهم، للواحد الأحد والثقة به ومحبته؟ هذه هي الأسئلة الأزلية التي تطرح بشأن الإيمان التي تقترن بكل تجربة زمنية وتاريخية للضمير المؤمن، كانت الهجرة إحدى إجابات الجماعة الإسلامية في فجر وجودها.

لقد كانت الهجرة أيضاً، في الواقع، تقتضي أن يتعلم المسلمون الأوائل كيف يظلون أوفياء لمعنى تعاليم الإسلام رغم تغير المكان والثقافة والذكرى. كانت المدينة تعني مواجهة عادات جديدة وأنواع جديدة من العلاقات الاجتماعية، ودوراً مختلفاً كل الاختلاف للنساء (اللوائي كان لهن وجود أكثر بكثير مما كان عليه الحال في مكة)، وعلاقات داخلية أكثر تعقيداً، فضلاً عن الوجود المؤثر للجماعات اليهودية والنصرانية، وهو أمر جديد

للمسلمين، ومنذ البداية، كان على جماعة المؤمنين، في سعيهم للافتداء بالنبي، أن يميزوا بين ما يخص المبادئ الإسلامية وما يتصل بشكل أخص بالثقافة المكية، وقد ظلوا أوفياء للأولى والعمل على اكتساب منهج مرن ونقدي إزاء ثقافتهم الأصلية. بل كان عليهم (حتى) محاولة إصلاح بعض مواقفهم، التي كانت ثقافية أكثر منها إسلامية. وقد كان على عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلم ذلك ودفع الثمن، بعد أن كان يتصرف بطريقته بالغة الشدة إزاء زوجته عندما كانت تراجعه، الأمر الذي كان غير وارد في مكة)، فقد ردت عليه بأن عليه أن يتحمل الوضع ويقبله مثلما فعل النبي ﷺ. كانت هذه تجربة صعبة عليه، مثلما كانت صعبة على الآخرين، الذين كان من المحتمل أن يميلوا إلى التفكير بأن عاداتهم وتقاليدهم كانت إسلامية بحد ذاتها: وقد أثبتت الهجرة أن الأمر ليس كذلك وأن على المرء الشك في كل ممارسة ثقافية، ليكون مخلصاً للمبادئ الإسلامية، والانفتاح على ثقافات أخرى والاكتساب من ثروتها، على حد سواء. على سبيل المثال، بعد أن علم النبي ﷺ بأنه سَيُجرى عرس لدى مسلمي المدينة (الأنصار)، فقد عمل النبي ﷺ على أن يتم إرسال اثنتين من الفتيات المغنيات إليهن، وذلك لأن الأنصار يحبون الغناء، كما قال[8]. فهو لم يقتصر بذلك على الاعتراف بسمة ثقافية أو بذوق لم يكن بحد ذاته معارضاً للمبادئ الإسلامية، لكنه قام بتضمينه بوصفه إثراءً لتجربته الإنسانية الخاصة به. لقد كانت الهجرة، إذاً، أيضاً، اختباراً للذكاء، تحفز إلى الحاجة للتمييز بين المبادئ ومظاهرها الثقافية؛ وعلاوة على ذلك، فقد كانت تعني ضمنياً الانفتاح والترحيب بثقة بعادات اجتماعية جديدة وبطرق جديدة للوجود والتفكير وبأذواق جديدة. وهكذا فقد انضمت عالمية المبادئ إلى ضرورة الاعتراف بتنوع طرائق الحياة والثقافات، وكانت الهجرة التجربة الأكثر

مباشرة وعمقاً لهذا؛ لأن هذا كان يعني انتزاع المرء من جذوره والمحافظة في الوقت نفسه على الولاء للإله نفسه وللمعنى نفسه، في بيئات مختلفة.

الهجرة هي أيضاً الشعور بالتحرر، التاريخي والروحي على حد سواء. فقد حرر موسى عليه السلام شعبه من اضطهاد فرعون وقادهم إلى الإيمان والحرية، إن جوهر الهجرة هو من الطابع نفسه تماماً، فبعد أن تعرض المؤمنون للاضطهاد بسبب معتقداتهم، قرروا الانعتاق من معذبيهم والسير إلى الحرية، كان هذا تعبيراً من جانبهم عن عدم استطاعتهم قبول الاضطهاد، ولا يستطيعون قبول وضعية الفريسة، وأن المسألة بسيطة من حيث الأساس: إن التفوه علناً باسم الله كان يعني ضمنياً إما أن يكون المرء حراً أو الانعتاق إلى الحرية، هذه الرسالة بالذات كان قد سبق للنبي ﷺ أن أوصلها، ثم تلاه أبو بكر رضي الله عنه، إلى جميع الأرقاء في مكة. فدخولهم في الإسلام كان يعني تحررهم، وكانت كل تعاليم الإسلام تشير إلى إنهاء الرق، ومنذ ذلك الحين، كانت توجه دعوة أوسع نطاقاً إلى الجماعة الإسلامية الروحية في مجموعها: الإيمان يقتضي الحرية والعدالة وعلى المرء أن يكون مستعداً، كما كان عليه الحال في الهجرة، لدفع الثمن الشخصي والجماعي من أجلها.

إن البعد الروحي لتلك التعاليم قريب وفي المتناول، بل هو كامن في أساسها ويضفي معنى عليها، ومنذ أوائل نزول الوحي، دُعِيَ محمد ﷺ إلى أن ينأى بنفسه عن مضطهديه وعن الشر: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾[9]. ثم: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾[10].

وقد اتخذ إبراهيم -الذي كان ابن أخته لوط واحداً من القلائل الذين آمنوا واعترفوا به- ذات الموقف عندما خاطب أهله بما يلي:

قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾[11].

الهجرة هي منفى الضمير والقلب من الآلهة المزيفة، من كافة أنواع الاغتراب، من الشر والخطايا، التحول عن أوثان زمن المرء (السلطة والمال وعبادة المظاهر.. إلخ)؛ الهجرة من الأكاذيب والأساليب غير الأخلاقية للحياة وتحرير الذات عبر معاناة الانعتاق، من كافة مظاهر الحرية التي تعززها، مفارقة، عاداتنا الخاصة ـ تلكم هي المتطلبات الروحية للهجرة. وعندما سئل النبي صلى الله عليه وسلم لاحقاً من قبل أحد الصحابة عن أفضل هجرة ممكنة، أجاب: (أن تهجر الشر)[12]. وسوف يتكرر لاحقاً هذا الشرط للمنفى الروحي بأشكال مختلفة.

وهكذا فإن المسلمين الذين قاموا بالهجرة، حيث إنهم هاجروا من مكة إلى المدينة، قد عاشوا تجربة البعد الدوري لتعاليم الإسلام، حيث إنه كان عليهم تحقيق عودة جديدة إلى أنفسهم، أي إلى هجرة القلب. كانت هجرتهم المادية إلى المدينة هجرة روحية إلى داخل ذاتهم؛ ففي ترك مدينتهم وجذورهم، عادوا إلى أنفسهم، إلى قربهم من الله، إلى معنى حياتهم الذي يتجاوز الأحداث التارخية الطارئة.

فقد انتهت الآن لقد انتهت الآن الهجرة المادية، وهي العمل التأسيسي للجماعة الإسلامية الأولى ومحور تجربتها، ولن تحدث ثانية، كما أوضحت

عائشة ــ رضي الله عنها ـ ذلك بقوة للموجودين في المدينة الذين كانوا يريدون أن يعيشوا من جديد تلك التجربة، وقد قرر عمر بن الخطاب ﷺ لاحقاً بأن هذا الحدث الفريد هو إيذان ببداية عهد الإسلام، الذي بدأ في عام 622 م. وما يبقى، وما هو متاح للجميع عبر العصور إلى ما شاء الله، هو تجربة الهجرة الروحية، التي تعيد الفرد إلى نفسه وتحرره من أوهام الذات والعالم. إن الهجرة في سبيل الله هي من حيث الجوهر سلسلة من الأسئلة التي سوف يسأل الله كل فرد عنها. من أنت؟ ما معنى حياتك؟ إلى أين أنت ذاهب؟ إن قبول مخاطر تلك الهجرة والاتكال على الواحد الأحد، هو أن يجيب المرء: بك أعود إلى نفسي وأنا حر.

الاستقرار والعهود

كانت كلمات النبي ﷺ الأولى لدى وصوله إلى قبا أن يعُرِّف المسلمين بمسؤولياتهم الأساسية: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام وصلّوا في الليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[13]. إن الإشارة إلى السلام مرتين، في بداية الخطبة وفي خاتمتها تدل على ما كان النبي ﷺ يريد من أصحابه بأن يفهموا استقرارهم في مدينتهم الجديدة، فرعاية الفقراء وصلة الأرحام تبدو تذكرة بالأساس الأخلاقي للوجود الإسلامي، الذي يتعين على كل مسلم أن يتعهد بالالتزام الدائم به، صلاة التهجد ـ «والناس نيام» ـ تشير إلى الهجرة الروحية المذكورة آنفاً، وتعطي القلب القوة والصفاء في الإيمان اللذين يتيحان تنفيذ واجبات الالتزام بالأخلاق وإفشاء السلام، إن هذا السعي لتحقيق السلام الداخلي (وحده، ولكن في النور الدافئ لمحبة الأسرة) هو الطريق الذي يتعين على المؤمن سلوكه كي يتمكن من إفشاء السلام في العالم ويساعد فقراء الناس.

هـذه التعاليـم لازمـت حيـاة النبي ﷺ، بمـا في ذلـك كل مرحلة من مراحل وجوده في المدينة، فلدى الوصول إلى المدينة، كان قد اكتسب سلطة رمزيـة وسياسية لا يسع وجهـاء المدينة تجاهلها. فقـد كان العديدون من سـكان المدينـة قد اعتنقـوا الإسلام واعترفـوا به رسـولاً لله؛ وكان هؤلاء ينتمـون إلى عشائر الأوس والخزرج على السواء، رغم الحروب التي كانت مستعـرة بينهم منذ زمن طويل، لقد كانـت رسالة الإسلام على درجة من القوة، مثلما كان عليه الحال في مكة، بحيث تجاوزت الانقسامات السابقة وجمعـت النساء والرجال من عشائر مختلفـة وطبقات اجتماعية متنوعة، وأصول مختلفة،على قلب واحد، هذا الوجود لم يكن يُعد إلا تهديداً لأولئك الذيـن كانوا يتمتعـون بشيء من السلطة قبل وصول النبي ﷺ. كما أنه لم يسـع القبائل اليهودية والمسيحية، المقيمـة في المنطقة منذ زمن طويل، إلا اتخاذ موقف المتفـرج الذي ينتظر النتائج، حيث إنهم كانوا منقسمين بين أن يعترفـوا بالتشابه بين دينهم ورسالـة التوحيد الإسلامية والتساؤل عن نوايا النبي الجديد، الذي كان من الطبيعي أن يعترفوا بنبوته (كان زعماء اليهـود قد صرحـوا عن ذلك قبـل وصوله). وقـد كان محمد ﷺ يدرك بالطبع ما ينطوي عليه الوضع من تعقيد ومن المخاطر الدينية والاجتماعية والسياسية الناجمة عن استقراره في المدينة.

فقـد قام على الفور بإبرام اتفاقيـة تنص على المساعدة المتبادلة بين المسلمين واليهود الذين كانوا يقطنون في الواحة[14]. كانت شروط العهد تستند إلى الاعتراف بالانتماءات المختلفة ولم تطلب أي تحول إلى الإسلام.

وقد نصت الاتفاقية على مبادئ العدل والمساواة والكرامة لجميع الموقعين على الاتفاقية (من يهود أو مسلمين أو من أهل المدينة أو من المهاجرين القادمين من مكة أو الأوس أو الخزرج). «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»، الأمر الذي يعني في الواقع أنهم ينتمون على قدم المساواة والتمام إلى الأمة[15]. وقد نصت على قيام الجميع بالدفاع عن حقوق كل فرد وأنه في حال وقوع صراع مع المشركين فإن عليهم جميعاً الوقوف معاً وألّا يقيموا تحالفات أو اتفاقيات مستقلة[16]. وقد ورد أيضاً في الاتفاقية أنه في حال حصول نزاع، فإن النبي ﷺ يتحمل مسؤولية التنفيذ الصارم والعادل لهذه الاتفاقية، كان اعتراف النبي ﷺ بقيمة تلك العلاقات التعاقدية التي استلهمها من الوحي، عنصراً ثابتاً في حياته وتعاليمه. فالعهد يحدد إطاراً؛ يؤكد استقلال الأطراف المعنيين به والاعتراف بهم (على أن يتم احترام جوهره)، وبالتالي فإنه يتيح وضع وسائل التنظيم والتقويم، وقد أصبح «العهد» لاحقاً في الإسلام شيئاً أساسياً، سواء في عهود الزواج أو العهود التجارية والاجتماعية وتلك التي توضع لتسوية الصراع أو حالة الحرب[17]، وقد شدد الوحي على أهمية العهود وعلى الوفاء بشروطها: (إن العهد كان مسؤولاً)[18]. وقال النبي ﷺ في هذا الصدد: (المسلمون عند شروطهم)[19].

مع اليهود

كان الوحي وشروط الميثاق وموقف النبي ﷺ من اليهود منذ وصوله إلى المدينة هي العوامل التي حددت الإطار العام للعلاقة

بـين المؤمنين في الديانتين، فقبل كل شيء كان هناك الاعتراف برابطة: الإله نفسه قد بعث كلاً من موسى عليه السلام ومحمد ﷺ. واليهود والنصارى هم «أهل الكتاب»، الذين تلقوا رسالة موحى بها من الله. ويقرر القرآن بوضوح هذا الاعتراف:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ ﴾[20].

عندمـا استقر مقام النبـي ﷺ في المدينة، لم يطلب مـن أحد اعتناق الإسـلام، وأوضح أنه يريـد أن تكون العلاقات في المجتمـع الجديد مبنيةً علـى المساواة، بعد ذلـك، عندما نشأت الصراعـات وتعرضت التحالفات للخيانـة، تدهور الوضع وتدهورت علاقات القبائل اليهودية مع بعضها إلى حد كبير، ومع ذلك، فإن هذه التطورات لم تؤثر على الإطلاق على المبادئ التي تحكـم العلاقة بين المسلمين واليهود: مـن حيث الاعتراف والاحترام المتبـادلان، فضلاً عـن المساواة أمـام القانون أو في تسويـة النزاعات بين الأفراد أو الجماعات.

علـى سبيل المثال، بعـد بضع سنوات، عندمـا كان المسلمون في حالة صـراع كامن مـع قبيلة يهوديـة كانوا يشكـون بأنها تخونهـم، ظن أحد المسلمـين أنـه قد يتجنـب المسؤولية عن سرقـة قام بها بـأن ألقى اللوم علـى أحد اليهود، وقد نزل الوحي على شـكل ثماني آيات يندد بالخيانة

الخطيرة التي ارتكبها المسلم المذنب وكشف عن براءة اليهودي[21]. كان ضلوع المسلم في السرقة صريحاً ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾[22].

ومهما حدث من صراع مع جماعات أخرى، فقد ظل مبدأ الاحترام والعدل ثابتاً ومتجاوزاً للوقائع التاريخية ويقضي بألا يستسلم ضمير المسلم لعمى العواطف والحقد. فقد أورد القرآن أن أي حقد يمكن أن ينشأ عن الحرب لا يلغي المبادئ التي يجب على المؤمنين أن يظلوا ملتزمين بها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[23].

لقد حافظ محمد ﷺ على مبدأ التمييز بين المواقف والناس المعنيين فيها، وأظهر بالغ الاحترام للأفراد ومعتقداتهم، وقد كان هناك شاب يهودي يصحب النبي ﷺ ويتبعه أينما ذهب عدة سنوات؛ لأنه كان يحب صحبة النبي ﷺ. وعلى الرغم من ذلك لم يطلب منه النبي ﷺ أبداً أن يتخلى عن دينه.

ثم أصيب الشاب بمرض خطير وعندما كان على فراش الموت طلب من أبيه أن يسمح له باعتناق الإسلام، لكنه ظل طيلة حياته في ملازمته للنبي ﷺ على دينه ويحظى بمحبة النبي ﷺ واحترامه.

بعد ذلك، بينما كان النبي ﷺ مع جماعة من المسلمين، مرت به جنازة فوقف الرسول احتراماً للمتوفى، وقد تعجب المسلمون من ذلك وقالوا له إنها كانت جنازة يهودي، فأجاب النبي ﷺ بوضوح: (ألم

تكن نفساً بشرية؟)، وقد ظلت التعاليم ثابتة رغم الصعوبات والخيانة والحروب: لم يجبر أحد على اعتناق الإسلام وكانت الفروق تحترم وكان يتعين معاملة الجميع على قدم المساواة، كانت تلك رسالة الوحي الأساسية وجوهر أعمال النبي، ينبغي قراءة كافة الآيات اللاحقة التي تشير إلى الصراعات والقتل والقتال في سياق ما نزل به الوحي (كون المسلمين في حالة حرب وبحاجة لحماية أنفسهم) ولا تغير بأي حال من الأحوال المحتوى الأساسي للرسالة في مجموعها.

المنافقون

بالرغم من هذا الميثاق، ورغم الجهود التي بذلها محمد ﷺ لطمأنة مختلف القبائل ومختلف الزعماء الدينيين، لم يكن الوضع بهذه البساطة. فقد كان ينطوي على التعامل مع ما لدى بعض الناس من غيرة وجشع وصراع على القوة فضلاً عن الإحباط الذي كان بعضهم يشعر به. لقد واجه النبي ﷺ مواقف تتيح له فرصة كافية لمعرفتها في مكة، حيث كان الدخول في الإسلام يقتضي من جانب البشر تضحيات لا يمكن أن تنبعث إلا من قلوب مؤمنة إيماناً مخلصاً وعميقاً. لكن الأمور تغيرت في المدينة. فقد أدى التشكيل الاجتماعي في المدينة، ومراكز القوى المختلفة فيها، والطابع ذاته لدور النبي ـ كل ذلك غير الوضع تغييراً كلياً: فبعض الأفراد وجدوا فرصة لاكتساب السلطة (مصلحة شبه سياسية) في الإعلام عن اعتناقهم للإسلام، في أول سورة نزلت في المدينة، أشار القرآن إلى هذا الظهور الإشكالي للمنافقين، الذين كانوا يشكلون خطراً رئيساً لأنهم

يكيدون للمجتمع المسلم من الداخل[24]. وكما أشار ابن كثير في تفسيره للقرآن، تتحدث أربع آيات في بداية سورة البقرة عن المؤمنين الصادقين ولا يذكر غير المؤمنين إلا في آيتين، لكن ثلاث عشرة آية وصفت مواقف المنافقين وأقوالهم الحافلة بالخداع والخيانة[25].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[26].

ثم يقول بعد ذلك:

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[27].

كان الخطر حقيقياً وأصبح دائماً لاحقاً. فبعض هؤلاء الناس أثاروا الحزازات القديمة بين الأوس والخزرج، وكادت إحدى هذه المحاولات تنجح لولا أن أحد الأفراد ذكرهم بالطابع الأسمى لأخوتهم في الإسلام. وكان أحد أفراد عشيرة الخزرج، عبد الله بن أبيّ، قد دخل في الإسلام لكن تبيّن لكثيرين من المؤمنين أنه مثير للفتن، حيث كان مثالاً نموذجياً للمنافق الذي ورد ذكره في القرآن، وكان أبو أمير، من عشيرة الأوس، يُنظر إليه بالطريقة نفسها حيث إنه كان ينشر سموم الفتنة، لكن لم يُتَّخذ أي إجراء بشأنهما، لكن الناس كانوا حذرين منهما وحرصوا على عدم الوقوع في الشباك التي يمكن أن تسبب الانقسام في صفوف المسلمين.

عهد المؤاخاة

كـي يقوي النبي ﷺ الروابط بين المسلمين، ولا سيما بين مسلمي المدينة (الأنصار) والذين هاجروا من مكة (المهاجرين)، فقد قرر وضع عهد رسمي بالمؤاخـاة بين المسلمين، وكان هذا يعنـي أن كل مهاجر كان مرتبطاً بعهد مع أحـد الأنصار، الـذي كان عليه مساعدة المهاجر علـى الاستقرار ومشاركته في ممتلكاتـه، وتمكينـه مـن العيش في المدينـة في أفضل الظـروف الممكنة. وعلـى صعيد أوسع، فإن علاقاتهم كانت تقـوم على أساس الأخوة والمشاركة والمساعـدة الروحية المتبادلة (كان يتعين علـى المهاجرين من مكة أن يعلموا أخواتهم وإخوانهم في المدينة ما كانوا يعرفونه عن الإسلام). هذا العهد وفر للمجتمع المسلم الجديد الذي استقر في المدينة قوة ووحدة خاصتين.

وقـد تم إيجاد علاقات بالغـة العمق بين المؤمنين الذيـن أعربوا لاحقاً عـن شـدة محبتهم المتبادلـة في الله. في حديـث قدسي صـور النبي ﷺ هـذه المحبة بأنها قمـة الأخوة في الإيمـان، وسعى أصحابـه إلى تحقيقها في أعمالهـم اليومية والتزاماتهم: (في يوم القيامـة يقول الله: أين الذين تحابوا؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي)[28].

تـدل الطريقة التي تعامـل المسلمون فيها مع الأوضـاع المؤلمة والصعبة والخطـرة التـي واجهتهـم على أنهـم حققوا درجـة من الأخـوة والثقة لا يمكـن لأي شدة أن تستطيع هدمها على الإطلاق. هذه الروابط شكلت قوة المجتمـع المسلم الروحيـة والاجتماعية، وفي ذلـك كان يكمن سر نجاحهم أمـام الله وبين الناس: الإيمـان بالله ومحبة الوالديـن والأخوة بين أفراد الشعب والأخلاق التي تخدم الكون وجميع الكائنات.

الأذان للصلاة

مـع مرور الشهور توطـدت تدريجياً أركان العبـادات: الصيام في شهر رمضـان وفرض أكثر دقة للـزكاة علاوة على الشهـادة والصلاة، وأصبح المسلمون يجتمعون في المسجد في أوقات محددة ويصلون جماعة.

كان النبـي ﷺ يفكر في طريقة لدعوة المؤمنين إلى الصلاة، كان يفكر في احتمالات محاكاة الممارسات اليهودية أو النصرانية، بواسطة الأجراس أو البـوق. وفي أحـد الأيام جاءه عبد الله بن زيـاد، وهو من الأنصار الذين اشتركوا في بيعة العقبة الثانية، وقال له إنه رأى في المنام رجلاً علمه طريقة الدعوة إلى الصلاة، استمع له النبي ﷺ وأدرك على الفور صدق الرؤيا.

فبعـث يطلب بـلال الحبشي رضي الله عنه الـذي كان صوتـه في غاية الجمال وطلـب إليه أن يقف على قمـة أعلى بيت قريب من المسجد ويدعو الناس إلى الصلاة.

هذه الدعوة ذاتها التي لم تتغير والتي تتمثل في تأكيد عظمة الله («الله أكبر») والشهادة («أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»)، ودعوة الناس إلى الصلاة والفلاح في الدنيا والآخرة لا زالت تتردد منذ نحو خمسة عشـر قرنـاً في البلدات والمدن الإسلامية، هذه الدعـوة مع كل ما فيها من أنغـام وإيقاعات وأصوات فإنها تعبر من خـلال موسيقاها عن الجمع بين الإيمان والجمال، بـين الروحانية وحب الجمال، تماماً مثلما أرادها النبي ﷺ عندما اختار بـلالاً مؤذناً، إنها تذكرة بالله الواحد الأحد الذي يحب الجمـال والـذي يستقبل مرحباً، خمس مرات في اليـوم، الذين يستجيبون للدعوة الجميلة إلى المثول بين يدي صاحب الجمال الأعظم[29].